

القطاس

قصة للكتابة الدنركية كيفت بليكت
نقرا الى العربية حسن بكر

حدث ميرزا جاما قائلا :

عاش في شيراز طالب دين شاب ، وكان رفيع الموهبة ، نقسي السريرة ، واسمه صوفي . ومد قرأ القرآن ، المرة تلو المرة ، فقد استوعب الفكر الملائكي ، حتى لقد عايش روحه الملائكة ، اكثر مما عايشت امه ، او اخوته او اساتذته ، او زملاءه من الطلبة ، او أي اناس آخرين في شيراز .

كان يستعيد من الكتاب المقدس ، الآيات التي تخص الملائكة .. اولئك الذين يستلون ارواح الرجال بقسوة ، والذين يقودون ارواح الاخرين باناة ودعة .. والذين يسبحون في الفضاء حاملين اوامر الله .. والذين يقودون خطي الفضلاء ، ويتقدمونهم الى الفردوس .. والذين يحكمون هذا الكون بشكل ثانوي ...

وحدث نفسه :

ان عرش الله لا بد ان يكون سامقا في السماء ، حتى لتعجز العين عن ان تطاله ، وحتى ليتعثر من دونه الفكر البشري . سوى ان الملائكة الاطهار يطوفون ما بين الابهاء الالهية الارجوانية ، وبين منازلنا ، وقاعات درسنا المظلمة .. ولا بد ان تتاح لنا رؤيتهم ، وان نتصل بهم .. وتداعي اليه

ان الطيور ، من بين جميع المخلوقات ، لا بد ان تكون على هيئة الملائكة .. اولم يقل الكتاب المقدس : « ان الله يسبح له ما في السموات والارض ، والطيور صافات » .. ثم لا ريب في ان الطيور تنتقل في كل من الارض والسماء ، تماما كما تفعل الملائكة . ونحن اذا ما حاولنا ان نقلد الطير في كل هذا ، فسنصبح اقرب ما نكون الى الملائكة ، مما نحن الان عليه .

ولكن ، بالاضافة الى كل هذه الاشياء ، فان للطيور اجنحة ، كما للملائكة .. ولو ان الرجال استطاعوا ان يركبوا لانفسهم اجنحة ترفعهم الى آفاق سامقة ، حيث يستوطن النور النقي ، الخالد ، لكان ذلك حسنا . اذا ما استنزف الطائر قدرة جناحيه ، حتى الرمق الاخير ، فربما يصادف او يمر بملاك ، خلال معابر الاثير الموحشة .. ولربما احتك جناح المصفور بقدم ملاك ، او التقت نظرة نسر ، في اللحظة التي اوشكت قوته فيها ان تخور ، بعيني احد رسل الله الهادئين .

وقدر :

يجب ان اوظف وقتي وعلمي في مهمة تركيب هذه الاجنحة لزملائي من الرجال .

وهكذا ازمع على ان يترك شيراز ، ليدرس اساليب المخلوقات المجنحة .

كان صوفي - حتى الان - يعيل امه ، واخوته القاصرين ، بتعليم ابناء الموسرين ، وبشسخ المخطوطات القديمة . وتظلموا بانهم سيصبحون فقراء بدونهم .. الا انه كان يجادلهم بان انجازاته ستعوضهم - يوما ما - عن حرمان الحاضر . اما اساتذته ، الذين كانوا يتنبأون له بحرفة ممتازة ، فقد جاءوا لرؤيته ، وحاجوه :

ما دام العالم قد استمر كل هذا الوقت ، دون ان يتصل

الرجال بالملائكة ، فلا بد ان ذلك كان قدرا على العالم .. ويجوز ان يبقى كذلك في المستقبل .

قال صوفي بأدب جم :

- حتى هذا اليوم ، لم ير احد الطيور المهاجرة ، تشق طريقها باتجاه اجواز فضاء اكثر دفئا ، لا وجود لها .. او الانهار تشق مجراها بين الصخور والسهول ، لتصب في محيط لا يمكن العثور عليه .. ذلك ان الله لم يخاق حيننا او املا ، دون ان يهيئ له حقيقة واقية .. سوى ان حيننا هو دعوانا .. وبورك الذين يحنون الى اوطانهم ، لانهم سيعودون اليها .

وصاح مدفوعا بتسلسل افكاره :

- وايضا ، أفلا يصبح عالم الانسان افضل ، اذا استطاع ان يتبادل المشورة مع الملائكة ، وان يتعلم منهم نواميس الكون التي يقرأونها بسهولة ، لانهم يرونها من عل .

كم كان ايمانه بما أخذ على عاتقه قويا ، حتى ان اساتذته - في النهاية - كفوا عن مصارضته ، قائلين لانفسهم ، ان شهرة تلميذهم قد تكسبهم - في مستقبل الايام - الشهرة معه .

مكث الصوفي الشاب عاما كاملا بين الطيور .. أقام سريره في اعشاب السهل الطويلة ، حيث ترامت اليه زفرقة الطيور الواهنة .. وتسلق الاشجار الهرمة ، حيث تبني اليمامة والصفور عشبيهما ، ووجد لنفسه مقعدا بين الاعضان ، فجلس هنالك بهدوء ، حتى انه لم يزعجهما قط .. وتجول في شعاب الجبال الشاهقات ، تحت ضفاف الشاطئ الثلجي تماما ، يجاوره زوج من النسور ، فيرقبهما في غدوهما ورواحهما .

عاد الى شيراز بحصيلته من المعلومات ، والادراك ، وانعكف على صنع اجنحته .

وقرأ في القرآن :

- « الحمد لله فاطر السموات والارض ، جاعل الملائكة رسلا اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع .. » ، وقرر ان يصنع لنفسه ثلاثة ازواج من الاجنحة : زوجا لكتفيه ، وزوجا لخاصرتيه ، وآخر لغذنيه . لقد جمع في تجواله ، العديد من مئات الارياش المتطايرة من اجنحة النسور ، والاوز ، والعقبان .. واعتكف وهذه معه .. وعمل بحماس زائد ، حتى انه لم ير او يكلم احدا ، لمدة طويلة .. ولكنه رتل القرآن اثناء عمله ، فوقف المارة ، وانصتوا ، ثم قالوا :

- ان هذا الصوفي الشاب يسبح لله ، ويؤدي ما أمر به . ولكن ، بعد ان أنجز اول زوج من الاجنحة ، وجربهما ، وشعر بقوتها الرافعة ، لم يستطع ان يحتفظ بانتصاره لنفسه ، بل حدث به اصدقاءه .

ابتسم عظام الناس في شيراز ، من النبلاء وكبار الموظفين ، بسخرية - بادىء ذي بدء - للشائعات عن عمله الباهر . ولكن ما ان انتشرت الشائعات ، واكدتها نقر كبير من الشبان ، حتى ازدادوا فزعا . قال احدهم للاخر :

- اذا اتصل هذا الولد الطائر بالملائكة حقا ، فان اهالي شيراز

أحنت رأسها إليه برقة ، ونظرت إليه بعينين سوداوين ، كثيفتي الإهداب ، وهمست :

– لقد حملتني في قلبك دهرا طويلا ، يا خادمي صوفي ..
وها أنذا قد جئت الآن ، لافتش نزلي الصغير ذاك . أما كم ساقبي معك ، في بيتك ، فرهن بخضوعك لي ، واستعدادك لتنفيذ مشيئتي .
ثم جلست على السطح ، وقد وضعت ساقا على ساق ، وبينما كان ما يزال هو راكما على ركبتيه .. واخذنا يتجادبان اطراف الحديث .
قالت :

– نحن الملائكة ، لا نحتاج حفا الى اجنحة ، لننتقل بين السماء والارض ، فان اطرافنا تكفي .. فاذا ما اصبحنا صديقين حميمين ، فسوف يصيح الامر كذلك ، بالنسبة لك .. وبوسعك عندئذ ان تحطم الاجنحة التي تصنعها .

وسألها ، وهو يهتز نشوة ، كيف يمكن ان يتم طيران كهذا ، وهو مخالف لكل قوانين العلوم .. فضحكت عليه ضحكة كأنها جرس صغير ، واضح .. قالت :

– انتم الرجال مولعون بالقوانين ، والجدل .. وان لديكم ايمانا كبيرا بالكلمات ، التي تخرج من خلال لحاكم .. ولكنني سأفنعك بان لنا فما لنقاش اكثر عذوبة ، وفما اكثر عذوبة للنقاش .. انني سأعلمك كيف يتوصل الملائكة والرجال ، بطريقة سماوية ، الى تفاهم مطلق ، دونما جدل . واما هذا ، فقد فعلته .

واما هذا ، فقد فعلته .
كانت سعادة الصوفي – طيلة شهر – مفرطة ، حتى ان قلبه استسلم لها .. ونسي كل ما يتعلق بعمله ، اذ كان يسلم نفسه ، المرة تلو المرة ، للتفاهم السماوي .
قال لثوسمو :

– انني ادرك – الان – مدى أحقية ابليس ، الذي قال لله :
« انا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين » .
وتنهى ، اذ اقتبس لها من الكتاب مرة اخرى :

– « قسل من كان عدوا لله وملائكته ... فان الله عدو للكافرين » .
واحتفظ بالملك في بيته ، لانها قالت له ان رؤية روائها ستعطي اهالي شيراز ، الذين لم يهودوه .. فكانت لا تخرج معه الى سطح المنزل الا ليلا ، ليتأملها معا الهلال الجديد .

وحدث الان ، ان شغف الصوفي الراقصة حبا .. فقد كان حسن الوجه ، كما جعلت حيويته التي لا تنضب ، منه عاشقا كبيرا .. فبدأت تؤمن انه قادر على اي شيء . وكانت ايضا ، قد فهمت من حديثها مع الوزير المعجوز ، انه ينظر بهلع الى الفتى واجنحته ، كشخص خطر عليه ، وعلى زملائه ، وعلى الدولة .. وقالت في نفسها ، انها تود ان ترى الوزير المعجوز ، وزملاءه ، والدولة ، وقد امحوا من وجه الارض .. فان حنانها لصديقتها الشاب ، قد جعل قلبها في رقة قلبه تقريبا .

وعندما اكتمل البدر ، واستلقت المدينة كلها سابعة في ضوءه ، جلس الاثنان ملتصقين على السطح ، وقد امتدت يده تداعب يديها ..
قال :

– لقد اكتسبت يداي ، مد عرفتك ، حياة خاصة بهما .. انني موقن ان الله ، حين وهب الرجال الأيدي ، قد اعرب لهم عن عطف ، ومحبة ، فكانه قد وهبهم اجنحة .
ورفع يديه ، وأخذ يتأملهما .
وتنهت قليلا ، قائلة :

– لا تحقن .. لست انا الملاك ، بل انت .. حقا ، ان لفي يدك قوة ، وحياة .. دعني اشعر بذلك مرة اخرى .. وثم أرتني غدا الاشياء العظيمة ، التي صنعتها بهما .

ولكي يدخل عليها السرور ، اخذها ، في اليوم التالي – وهي غارقة في الحجاب – الى مصنعه .. وعندئذ ، رأى ان الفران قد

– كعادتهم عندما يحدث اي شيء غير طبيعي – سيجنون تعجبسا وسرورا .. ومن يدري اية اشياء جديدة ، او ثورية ، ستتبوه الملائكة بها ؟ ..

وعلقوا على ذلك قائلين :
– فان من الجائز ان توجد ملائكة في السماء .
وقلبا الامر على وجوهه .. فقال كبيرهم ، وكان وزيرا للملك ، واسمه ميرزا اغا :

– ان هذا الفتى خطر ما بقيت له احلام عراض .. ولكنه غير مؤذ .. وسيكون ميسور التدبير ، ما دام قد اهتمل دراسة عالمنا الحقيقي ، الذي تحك فيه الاحلام . وسوف نثبت له ، ونفسي – بدرس واحد – وجود الملائكة .. ام ترى ان شيراز خلت من الفتيات الشابات ؟

استدعى – في اليوم التالي – احدى راقصات الملك ، واسمها ثوسمو .. وشرح لها من الامر القدر الذي حسب انه من الخير لها ان تعرفه .. ووعد بان ينعم عليها ، اذا اطاعته ، والا فان صديقتها ، الراقصة الشابة ، ستبقى لتعمل محلها ، في فرقة الرقص الملكية ، في احتفالات فطف الورد ، لتقطير العطور .

وهكذا حدث ذات ليلة ، عندما صعد الصوفي الى سطح منزله ، لكي ينظر الى النجوم ، وبحسب مدى السرعة التي يمكن ان يسافر بها من نجم الى اخر ، ان سمع اسمه ينادى بصوت منخفض ، من خلفه . فلما التفت ، لمح طيفا جميلا ، أهيى ، في رداء من الذهب والفضة ، منتصبا – وقد جمعت قدميها – بالقرب من حافة السطح .
لقد ملا الشاب عقله بالفكرة الملائكية .. فلم يساوره الشك في هوية زائرته ، بل انه لم يفاجأ كثيرا ، وانما غمره السرور .. وارسل نظرة الى السماء ، ليرى ما اذا كان طيران الملاك قد خلف هنالك قبسا من نور . وفي هذه الآونة ، سحب القوم من دونه السلم الذي تسلفت الراقصة سطحه بواسطته .. ثم خر امامها على ركبتيه .

في المكتبات

مع الإمام علي

من خلال « نهج البلاغة »

دراسة مستفيضة عن عبقرية الامام علي كسياسي وحكيم من خلال خطبه ورسائله التي يتضمنها كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تأليف

خليل الهنداوي

منشورات

دار الاداب

الثلث ٢٥٠ ق.ل

أكلت ارياش النسور المتطيرة ، وان اطار الجناحين قد حطم ، ونشر الحطام هنا وهناك .. ونظر اليه ، وطفق يتذكر الايام التي انكب فيها على صنعهما .. سوى ان الراقصة بكت :

– لم أكن اعلم ان هذا ما اراد .. أوليس ميرزا أنا رجلا لثيما ! وسألها مذهولا عما تعنيه ، فأخبرته بكل شيء ، بأسى وسخط .. قالت :

– اواه يا حبيبي .. انني لا استطيع الطيران ، رغم انهم يقولون لي انني ذات خفة غريبة ، حينما ارقص .. لا تفضب علي .. بل تذكر ان ميرزا انا واصدقائه قوم عظام ، لا تستطيع فتاة فقيرة مثلي ان تنالهم بسوء .. وانهم اغنياء ، ويملكون اشياء جميلة .. وانك لا يمكن ان تتوقع من راقصة ان تكون ملاكا .

واذ سمع ذلك ، خر على وجهه ، لا ينس بيت شمس .. وجلست تؤسوم بجانبه .. وتساقطت دموعها على خصلات شعره ، التي لفتها حول اناملها .. وقالت :

– انت فتى رائع .. ان كل شيء معك عظيم ، وعذب ، وسماوي بحق .. وانني لاحبك .. فلا تأس يا عزيزي .

ورفع رأسه .. ونظر اليها ، ثم قال :

– « وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة .. » .

قالت :

– لا يوجد من يرتل القرآن بعذوبة ، كما ترتله .

عاد ينظر اليها من جديد قائلا :

– « فكيف اذا توفتهم الملائكة ، يضربون وجوههم وادبارهم .. ذوقوا عذاب النار بما كنتم تفتلون .. » .

وبعد برهة قالت :

– لعله ما يزال بوسعك ان تصلح الجناحين ، واربما اصبحا كأنهما جديدان .

قال :

– انني لا استطيع ان اصلحهما .. والان ، وقد نفذت مهمتك ، فيجب ان تذهبي ، اذ انه سيكون خطرا عليك ان تبقي معي ، لان ميرزا انا واصدقائه قوم عظام .. وان عليك ان ترقصي في مهرجان كطف الورد ، لتفتير الطور .

قالت :

– وهل تنسى تؤسوم ؟

قال :

– لا .

– هل ستحضر لتشاهدني ، وانا ارقص ؟

اجاب :

– نعم ، ان استطعت .

قالت بأسى ، وقد انتصبت واقفة :

– سوف آمل دائما ، بانك ستحضر .. ذلك ان المرء لا يستطيع ان يرقص بلا امل .

وبذلك ، انصرفت حزينة .

ضاق الصوفي ، الان ، ذرعا ببنته .. فترك باب مصنعه مفتوحا ، واخذ يتجول في المدينة .. ولكنه لم يستطع البقاء في المدينة ، فاتجه صوب الغابات والسهول .. غير انه لم يحتمل رؤية الطيور ، او سماع اغاريدها .. فما لبث ان عاد الى الشوارع .. وهنسا ، كان يتوقف احيانا امام حوانيت بائعي العصافير ، ويتأملها في افاصها ، لفترة طويلة .

وعندما تحدث اليه اصداقؤه ، لم يتعرف عليهم .. سوى انه كان ، اذا ضحك الصبية عليه ، في الشوارع ، وتصايحوا : « انظروا الصوفي الذي آمن بان تؤسوم ملاك » ، يقف جامدا ، ينظر اليهم ، ثم يقول :

– انني ما ازال اعتقد ذلك .. فانا لم افقد ايماني بالراقصة ، وانما بالملائكة .. اليوم لم اعد اذكر كيف تصورت منظر الملائكة ،

عندما كنت صغيرا .. انني اشعر ان منظرهم مخيف .. قل من كان عدوا للملائكة ، فانه عدوله ، ومن كان عدوا لله ، لم يبق له امل .. وانا لا امل لي .. وانك لن تستطيع ان تطير بلا امل .. وهذا ما يقض مضجعي .

على هذا النوال ، هام الصوفي التمس على وجهه ، طيــــلة عام .. ولقد قابلته في الشوارع بنفسه ، عندما كنت صبيبا صغيرا ، ملتفا بعباءة سوداء رثة ، وبعباءة من الوحدة الابدية ، الاكثر سوادا . وفي نهاية العام ، ذهب ، ولم يعد يرى في شيراز .

قال ميرزا جاما :

– هذا هو الفصل الاول من القصة .

سوى انه حدث – بعد سنوات عديدة ، عندما شبيت عن الطوق ، وطفقت ، اول الامر ، احكي الحكايات ، لاسعد بها العالم ، ولاعلمه الحكمة – ان سافرت الى شواطئ البحر الرملية ، الى قري صيادي اللؤلؤ ، لكي اسمع مفامرات هؤلاء الرجال ، وادعيها لنفسي . ذلك ان اشياء كثيرة تقع للذين يفتسون في اعماق البحر .. ان اللاليء في حد ذاتها ، اشياء تنصف بالفموس ، والمفامرة .. انك اذا تابعت تطور لؤلؤة واحدة ، فسوف يعطيك مادة لمائة حكاية .. وان اللاليء مثل حكايات الشعراء : المرض وقد انقلب الى عذوبة .. انها اسرار الاعماق – وهي شفاقة ، وغامضة في آن معا – أخرجت للنور لتسعد بها النساء الشابات ، اللاتي سيتعرفن فيها الى اسرار صدورهن الاعمق غورا .

وبعد حقبة من الزمن ، سردت على الملوك ، بنجاح عظيم ، الفصص التي قصها علي – من قبل – الصيادون البسطاء ، الوادعون . كثيرا ما تردد اسم في حكاياتهم ، مما اثار فضولي .. فرجوتهم ان يخبروني باسهاب ، عن كتبها .. عندئذ ، افادوني بأن الرجل غدا مشهورا بينهم ، نظرا لجرأته ، وحظه العجيب ، غير المهود . وفي الحقيقة ، فان اسم « النازد » الذي اطلقوه عليه ، يعني بلهجتهم الشخص « الناجح » او « السعيد والقانع » .. لقد كان يفتس الى اعماق الاعماق ، ويهكت في القعر اكثر من اي صياد آخر .. وانه ما خاب قط في ان يجلب الى السطح ذلك المحار المحتوي على انفس اللاليء . لقد ساد الاعتقاد ، في قرية صيادي اللؤلؤ ، ان له في المياه العميقة صديقا – ربما كان حورية شقراء ، او ربما كان ايضا ماردا بحريا – ليرشده . واذا كان باقي الصيادين عرضة لاستغلال شركاتهم التجارية ، فعاشوا فقراء طيلة حياتهم ، فان الشخص السعيد قد تمكن من ان يجمع لنفسه ثروة طائلة .. فاشترى منزلا وحديقة بداخل البلاد ، واحضر امه لتقيم فيه .. وزوج اخوته .. غير انه بقي محتفظا لنفسه بكوخ صغير على الشاطئ . وعلى الرغم من شهرته الجنية ، فقد كان – كما يبدو – على اليابسة ، وفسي حياته اليومية ، رجلا مسالما .

انا شاعر .. وقد اعاد الي شيء ما في هذه الروايات ، حكايات الماضي السحيق .. ففكرت ان ابحت عن هذا الشخص الناجح ، واشجعه على ان يحدثني عن نفسه . وعيئا بحثت عنه – باديء الامر – في منزله الانيق ، والحديقة الغناء . وذات ليلة ، مشيت بمحاذاة الشاطئ ، الى كوخه .

كان القمر بدرا في السماء ، والامواج الرمادية الطويلة تتوافد الى الشاطئ تباعا .. وكل شيء من حولي ، يبدو متفقا على كتم السر .. دقت النظر في كــــل ذلك ، وأحسست انني ساسمع شيئا ما ، وسأولف قصة رائعة .

لم يكن الرجل الذي سعيت اليه ، في كوخه .. بل كان جالسا على الرمل ، محملا في البحر .. وكان بين الفينة والفينة ، يرميه بحصاة . وفي ضوء القمر ، رأيت رجلا بدينا ، جميلا ، تعبر قسماته الوادعة بحق ، عن السعادة والوئام .

حييته باحترام ، وذكرت له اسمي ، واوضحت انني خسرحت

لأنه شفى في الليل الدافئ ، الصافي .. فرد التحية بلطف ، ووقار .. وأخبرني بمعرفته بي من قبل ، عن طريق شهرتي ككاتب يحاول التمكن من فن سرد القصة . ثم دعاني للجلوس بجانبه ، على الرمل . تحدث لبرهة ، عن القمر ، والبحر .. ثم قال ، بعد فترة من الصمت ، انه لم يسمع حكاية تحكى ، منذ زمن بعيد .. فهل يمكن ان أقص عليه قصة ، فيما كنا جالسين معا بسرور ، في الليل الدافئ ، الصافي ؟

كنت توافيا لاثبت مهارتي .. وأملت أيضا ان يخدم ذلك غايتي معه . وهكذا ، فتشت ذاكرتي عن حكاية حسنة . وبطريقة ما - ولست أدري لم - ألحت علي قصة الصوفي صوفي الحاحا عجيبا .. فرحت احده بصوت منخفض ، طلي ، متجاوب مع القمر والامواج :

- عاش في شيراز ، طالب دين ...
أصفي الرجل السعيد الي بهوء ، وانتباه . ولكن ما ان انبت على فصل العاشقين ، على سطح المنزل ، وسميت الراقصة « نوسمو » ، حتى رفع يده ، واخذ يتأملها . لقد أجهدت نفسي في خلق منظر ضوء القمر الشعاري .. وكان ذلك عزيزا على قلب الشاعر الذي يخفق بداخلي .. فعرفت البادرة ، وصرخت بدهشة عظيمة ، ورعب :
- أنت الصوفي صوفي الشيرازي !
قال الرجل السعيد :

- نعم .
انه لشيء مخيف ، بالنسبة للشاعر ، ان يتبين قصته حقيقية .. لقد كنت آنذاك صبيا ، مبتدئا في فني .. فاشرب شعر رأسي .. وأوشكت ان انهض ، وأولي الإديار .. الا ان شيئا في نبرات صوت الرجل السعيد ، شدني الى المكان . قال :
- كان فيض من رفاهية الصوفي الذي حدثني عنه قبل قليل ، في قلبي ، ذات مرة .. ولكنني كدت الان ان انساه .. سوى انه

شعر	
من منشورات دار الآداب	
وجدتها	فدوى طوقان
وحدني مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ايات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل مؤرقة	سليمان العيسى
دار الآداب	
بيروت - ص.ب ١١٢٣	

يسرني ان اعلم انه اصبح احبوبة ، فقد يكون هذا ما خلق له .. ولسوف اتركه - في المستقبل - هنالك باطمئنان .. هيا يا مسيرا جاما ، يا ايها القصصي ، وأكمل قصتك ، ودعني أسمع نهايتها . ارتجت أوصالي لطلبه .. غير ان طريقته سحرتني ، مرة أخرى ، وساعدتني على ان امسك بطرف خيط قصتي . شعرت - اول الامر - انه كان يمنحني بذلك شرفا .. وما لبثت - اذ تابعت - ان أدركت انني بدوري أضفي عليه شرفا .. ان نصر القصصي قد ملأ قلبي .. فسردت قصتي بعاطفة بالغة .. وما ان فرغت منهسا - هنالك على الشاطئ البحري الناعم ، حين لم يكن تحت أشعة البدر سوانا - حتى كان وجهي قد اغتمس بالدموع .

طفق الرجل السعيد يسري عني ، ويرجوني ألا أثار بقصة ما كثيرا . وهكذا ، عندما استعصت سيطرتي على نبرات صوتي ، توصلت اليه ان يحدثني عن كل ما حدث له ، بعد ان ترك شيراز ، لان تجاربه في البحر العميق ، وحظه الذي جلب اليه الثراء ، والشهرة بين الرجال ، سيؤلفان - بالتأكيد - قصة بديعة ، كالتي حكيتها له ، بل وأكثر مرحا .. وأوضحت له ان الامراء ، والنساء العظيمات ، والراقصات يجبن الحكايات الحزينة ، وكذلك يفعل المسولون القابعون في أزقة المدينة .. ولكنني أود ان اكون قصصيا للعالم اجمع .. ورجال الاعمال وزوجاتهم سيطلبون حكاية تنتهي نهاية حسنة .

بقي الرجل السعيد صامتا الى حين .
أجابني :

- ان ما حدث لي - بعد ان هجرت شيراز - لا يؤلف قصة على الاطلاق .. انني مشهور بين الرجال ، لانني قادر على البقاء في قعر البحر ، اكثر منهم .. ان هذه القدرة - اذا شئت - تركة بسيطة ، خلفها لي الصوفي الذي حدثتني عنه .. سوى ان ذلك لا يؤلف قصة .. لقد كانت الاسماك عطوفة علي .. انها لا تخون احدا .. وهكذا ، فان ذلك لا يؤلف قصة .

وبعد فترة اطول من الصمت ، استنرد قائلا :
- في مقابل حكايتك ، ولكي لا ائبط عزم شاعر شاب ، ومع ان ذلك لا يؤلف قصة ، فانني سأحدثك عما حدث لي ، بعد ان تركت شيراز .

ثم بدأ روايته ، فأصغيت اليه .
- ساهمل ايضا كيفية خروجي من شيراز ، وقدمي هنا .. وسأسرد من تجاربي فقط ما يمكن ان يسعد رجال الاعمال وزوجاتهم .
- ذلك لان سمكة صغيرة ، عجوزا ، ذات نظارة قرنية الاطار تمهدت بي ، عندما غصت - اول مرة - الى الاعماق ، باحثا عن لؤلؤ نادرة ، معينة ، كنت - آنذاك - قد فكرت فيها طويلا . كانت تلك السمكة - وهي بعد صغيرة - قد وقعت في شبكة اثنين من الصيادين العجائز ، وأمضت ليلة بحالها هناك ، في الماء الإسمن بجوف قاربهما .. واستمعت الى حديث هذين الرجلين اللذين لا بد وان كانا تقيين ، علامتين . ولكنها - في الصباح - بعد ان انتشلت الشبكة الى الشاطئ ، انزلت من احد الثوب ، وسبحت بعيدا .. ومنذ ذلك الحين ، وهي تسخر من ريبة باقي الاسماك بالرجال . انها توضح ان السمكة تستطيع حقا ان تسوسهم بسهولة ، اذا ما عرفت كيف تؤدب نفسها . أضف الى ذلك ، انها قد اخذت تهتم بطبيعة الانسان وعاداته .. وغالبا ما تحاضر جمعا من الاسماك عنها .. ويحلوا لها ، ايضا ، ان تحبها معي .

- انني مدين لها بالشيء الكثير ، ذلك انها تحتل مكانة مرموقة ، في البحر .. ولما كنت تحت حمايتها ، فاني استقبل في كل مكان .. انني مدين لها ايضا ، بالكثير من الثروة ، والشهرة اللتين جعلتا مني - كما قيل لك - رجلا سعيدا .. انني مدين لها باكثر من ذلك ، لانها أقضت الي - في احاديثنا الطويلة معا - بالفلسفة التي أعادتني الى الطمانينة .

وهذا ما تعظ به :

- انها تعلق « ان السمكة هي الوحيدة ، من بين جميع المخلوقات ، التي صنعت بأقصى عناية ودقة ، لتأتي على صورة الله .. ان كل الاشياء تعمل مجتمعة بفضل خيرها .. ومن هذا يمكننا القول بانها قد دميت لهذا الغرض .

- « ان الانسان لا يستطيع ان يتحرك الا باتجاه واحد .. وهو مقيد الى الارض .. ومع ذلك ، فان الارض لا تعطيه الا المسافة الضيقة ، الممتدة بين موطئ قدميه .. ان عليه ان يحمل ثقله ، ويتأوه من تحته .. ان عليه - وكذلك فهبت من حديث صيادي العجوزين - ان يتساقط تلال الارض بمسقة .. وقد يحدث له ان يسقط من فوقها ، فتتلفاه الارض - عندئذ - بقسوة .. وحتى الطيور ذات الاجنحة ، فانها ان لم تجد اجنحتها ، فان الهواء الذي تقيم فيه ، يخونها ، ويقذف بها الى أسفل .

- « نحن معشر الاسماك ، نؤيد ، ونسند بكل اتجاه .. اننا نتمشى مع جوهنا بثقة ووثاق .. اننا نتحرك ضمن كل المقاييس .. ومهما كان الاتجاه الذي نأخذه ، فان المياه العاتية - احتراما منها لميزتنا - تغير شكلها تبعاً لذلك .

- « نحن لا ايدي لنا .. ولذا ، فاننا لا نستطيع ان نشيد اي شيء قط .. ولا يفرنا الطموح الكاذب ، الى ان نغير اي شيء ، مهما كان ، في كون الله .. اننا لا نبد ، ولا نكد .. ولذا فان تقديرنا لا يمكن ان تأتي خاطئة ، ولا يخيب رجائنا .. ان اعظم الاسماك منزلة فينا ، قد وصلت - في بيئتها - الى الظلام الكامل .. ونواميس الكون نقرأها بسهولة ، لاننا نراها من اسفل .

- « اننا نحمل معنا ، في هيامنا هذا على وجوهنا ، بغير هدف ، عرضاً للحوادث متقن التناسق ، لكي يثبت لنا مركزنا الممتاز ، ولكي يحفظ لنا شعورنا المتبادل ، وليؤكد لنا تعاطفنا .. انه معروف للانسان ايضا .. بل وانه ليحتل مكانا مهما في تاريخه .. ولكن ، نظراً لتصويره الطفولي للاشياء ، بشكل عام ، فان فهمه لها مشوه .. سوف اذكرها لك :

- « عندما خلق الله الارض والسماء ، تسببت له الارض بخيبة امل مريرة .. فالانسان - بقدرته على السقوط - سقط مباشرة تقريباً ، وسقط معه كل ما كان على الارض اليابسة . لقد ندم الله على انه خلق الانسان ، ووحوش الارض المفترسة ، وجوارح الهواء . « ولكن السمكة لم ، ولن تسقط ابداً .. فكيف ، او الى اين سنسقط نحن ؟ .. وهكذا ، فان الله نظر الى اسمائه بعطف .. وواسته رؤيتها ، لظالماتها الوحيدة ، من بين جميع المخلوقات ، اللاتي لم يخين امله .

- « وقضى الله ان يكافئ الاسماك حسب ميزاتها .. وهكذا تفجرت بناييع الاغوار السحيقة .. وفتحت شبانك السماء .. وتدفتت مياه الفيضان على الارض .. وطففت المياه ، وزيدت .. ففمرت جميع التلال الشاهقات التي كانت تحت السماء .. وطفقت المياه بسرعة فائقة .. فمات كل اللحم الذي كان يدب على اليابسة ، من لحم الدواجن ، وقطعان الماشية ، والوحوش المفترسة ، وكل انسان .. لقد فني كل من عليها .

- « لن أطيل الحديث - وانا اقدم لك هذا التقرير - عن مسرات ذلك العصر ، وتلك الحالة ، لانني اتجاوب مع الانسان بالمعاطفة ، فضلاً عن الذوق .. انت نفسك ، ربما وطدت العزم - قبل ان تجد طريقك الينا - على اقتناء قطعان الابقار ، والخيول ، والجمال ، ولربما انك اقتنيت الحمام والطواويس .. انك ما تزال شاباً ، وربما تطلعت - منذ عهد غير بعيد - بمخلوقة من طينتك ، وهي مع ذلك ، نوعاً ما ، كالمطائر ، وتسميها انت بالمرأة الشابة .. (مع ان من الخير لك - بالمناسبة - لو انها لم تكن كذلك ، لانني اذكر كلمات صيادي ، ألا وهي ان المرأة الشابة تجعل عاشقها

يدوق عذاب الاحتراق .. وربما اخذت - عوضاً عن ذلك - تهتم باحدى بنات اخواتي - وهن مخلوقات شابات ، مالحات بشكل غير مألوف - واللاتي لن يذفن العاشق أياً من عذاب الاحتراق) .. ولن اذكر الا باقتضاب انه كان لنا مائة وخمسون يوماً من الخير ، وان تلك الكمية الوفيرة ، المباركة ظهرت بنفخة بوق كاملة .

- « وسوف اضيف ، بأسلوب الاسماك البدائي ، العساقل - وارضاء لنفسي هذه المرة - ماراً بذلك على الحقيقة مرور الكرام ، ان الانسان ، رغم انه سقط ، وعفن ، قد نجح بالخداع ، مرة اخرى ، في ان يتربع على القمة .

- « وعلى كل حال ، يبقى الامر موضع شك شديد ، في ان يكون الانسان قد حصل ، من خلال هذا النصر الظاهري ، على الرفاهية الحقيقية .. فكيف ينال الطمأنينة الحقيقية مخلوق قلق ابداً على الاتجاهات التي يتحرك فيها .. مخلوق يعلق على ارتفاعه او سقوطه أهمية بالغة .. كيف يستطيع مخلوق ان ينال الدعة ، وهو يأبى ان يقلع عن فكرة الامل ، والخطر ؟

- « نحن معشر الاسماك نستريح بهدوء ، مدعومين في كسل الاتجاهات ، ضمن طبيعة تسوي نفسها دائماً بدقة ، ودونما كلل .. طبيعة يمكن ان يقال انها تضطلع بوجودنا الشخصي ، بقدر ما تحسب اوزاننا ، واجسادنا - بغض النظر عن اشكالنا الشخصية ، وما اذا كنا اسماكاً مسطحة ، او مستديرة - بالنسبة الى ذلك الحيز الذي نحتله في بيئتنا .

- « لقد اثبتت لنا تجاربنا - وستثبت لك تجربتك الخاصة ، في يوم ما - ان المرء يستطيع ان يطفو جيداً ، بدون امل .. بلى ، فان المرء سيطفو افضل بدونه .. وعليه ، ايضا ، فان شريفتنا تنص على ان يطرح كل الامل ، بالنسبة لنا ، جانبا .

- « نحن لا نركب الاخطار ، ذلك ان تغييرنا المكان - في الواقع - لا يخلق ، او يخلف وراءه ما يسميه الانسان طريقاً .. وهي الظاهرة - وليست في الواقع ظاهرة بل وهما - التي يضيع الانسان عليها تصميمها عاطفياً ، لا يمكن تفسيره .

- « والانسان ، في النهاية ، مزعج بفكرة الزمن .. انه متجول باستمرار بين الماضي ، والمستقبل . ان سكان العالم المائي قد جمعوا الماضي والمستقبل ، في القول المأثور : بعدنا فليكن الطوفان » .

ترجمة حسن بكر

صدر حديثاً

الوجودية وهيكلة السمور

تأليف سيمون دو بوفوار

ترجمة جورج طرابيشي

دراسات عميقة عن الوجودية وعلاقتها

بالمجتمع والشعب وأثرها في الحياة عموماً

الثلث ١٧٥ قرشاً لبنانياً

دار الآداب